



ملامح من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري
السوري المعاصر. ديوان بين يدي المحيط، أنموذجا

Features of the Historical and Mythical Heritage in Contemporary Syrian
Poetic Discourse –

A Collection “In the Hands of the Ocean” as a Model

محمد عبد الرحمن يونس

جامعة ابن رشد (هولندا)، moh.younesmoon@gmail.com

ملخص: يحاول هذا المقال أن يدرس تيمة أهم الخلفيات التاريخية والأسطورية التي احتفى بها الخطاب الشعري السوري المعاصر، وذلك من خلال دراسة ديوان الشاعر السوري المعاصر محمد حمدان، الموسوم بـ: (بين يدي المحيط)، فقد شكلت هذه الخلفيات مرجعا مهما اتكأت عليه قصائد الديوان، ونقلتها من واقعها ومن فضائها التاريخي والأسطوري إلى فضاء النص الشعري، مركزة على مجمل أبعادها، بإشاراتها الرمزية، وانفتاح هذه الأبعاد بإشاراتها السيميائية على الواقع العربي المعاصر، المتردي إنسانيا وحضاريا وثقافيا ومعرفيا وسياسيا، لتدل على مجمل البنى الفاسدة التي تحكمت، وما زالت تتحكم في بنية الحياة العربية المعاصرة، وعلاقتها وقيمها، ومنظوماتها الأخلاقية والمعرفية. تستحضر القصائد الشعرية التاريخ والأساطير القديمة ليس احتفاء بأمجاد هذا التاريخ، ولا بأبطال هذه الأساطير، بل لتكون شاهدا ودليلا على زمان عربي معاصر، ينحدر كل يوم مسرعا إلى مهاوي القاع، حيث يفقد سكان هذا الزمان حرياتهم وكرامتهم، ويجوعون ويتشردون، ويغرقون في

المؤلف المرسل: محمد عبد الرحمن يونس، الإيميل: moh.younesmoon@gmail.com

ملاحع من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
وابل من الفواجع والقتامة والسواد الذي لا انجلاء له. ومن هنا فإن هذا
الديوان قد احتفى بإيديولوجيا الرفض، وكرّسها في لغة الخطاب الشعري،
وفي رؤية هذا الخطاب، وامتداد هذه الرؤية في أزمنة العالم العربي، ومدنه،
وعلاقاته. ولا تستثني هذه الرؤية زمانا عربيا ما، أو مدينة عربية ما، أو نظاما
اجتماعيا وسياسيا بعينه، بل هي رؤية تعري الكلّ، وتفضح الكلّ، وتدين
عيوب هذا الكلّ، أتى حلّ، وأتّى ارتحل.

كلمات مفتاحية: الشعري، الخطاب، المعاصر، السوري، يونس.

Abstract: This article attempts to study the theme of the most important historical and mythological backgrounds that the contemporary Syrian poetic discourse solemnized, by studying the poet of the contemporary Syrian poet Muhammad Hamdane, entitled "In the Hands of the Ocean". These backgrounds constituted an important reference on which the poems of the collection of poems relied, and transferred them from their reality, historical and mythological spaces to the poetic text space, focusing on its overall dimensions, with its symbolic signs, and the openness of these dimensions with its semiotic references to contemporary Arab reality, which is deteriorating humanly, culturally, artistically, cognitively and politically, to indicate the entirety of the corrupt structures that ruled and still control the structure of contemporary Arab life, its relationships and values, and its ethical and cognitive systems. The poems evoke history and ancient myths, not a celebration of the glories of this history, nor the heroes of these myths, but rather as a witness and a guide to a contemporary Arab time, every day it descends rapidly to the abysses/shafts of the bottom, where the inhabitants of this time lose their freedom and dignity, starve and become homeless, and drowned into a hail of tragedies, gloominess and blackness that do not evacuate. Hence, this collection of poems has celebrated the ideology of rejection, and consecrated it in the language of poetic discourse, and in the vision of this discourse, and the extension of this vision in the times of the Arab world, its cities, and its relations. This vision does not exclude a certain Arab time, or some Arab city, or a specific social and political system. Rather, it is a vision that strips and unmasks everyone, and condemns the faults of all of this, whether settling, or migrating.

Keywords: Poetic, discourse, contemporary, Syrian, Younes

مقدمة:

للخطاب الشعري المعاصر خلفيات ثقافية متنوعة يستمد منها رؤاه وأطروحاته
الفكرية، ومن هذه الخلفيات: الواقع والتاريخ والتراث العربي بحكاياته وخرافاته وأساطيره.

فالتراث العربي يشكل بالنسبة للفكر الأدبي العربي المعاصر امتداداً وحضوراً فاعلاً، ويتجلى هذا الحضور في استفادة هذا الفكر من بنيات هذا التراث وتجسيدها في أجناس الخطاب الأدبي، سواء أكان شعراً أم قصة أم رواية أم مسرحاً. والأعمال الأدبية التي استفادت من التراث العربي كثيرة جداً، ويصعب حصرها، وقلما نجد كاتباً عربياً إلا واستفاد من بنية التراث العربي، بأنساقه التاريخية والأسطورية والخرافية. إلا أنه من الملاحظ أن الخطاب الشعري العربي الحديث والمعاصر كان أكثر الأجناس الأدبية استفادة من الرمز الأسطوري وإيحاءاته ودلالته.

كانت الأسطورة منذ القديم محاولة لتفسير الحياة والكون، وظواهره الطبيعية، وبالتالي هي ظاهرة ثقافية وبنية فكرية في ذاكرة الأمم والحضارات والشعوب، إنها "تشكل جزءاً من لغة التعبير الشعبي" (1).

وهي تشكل بنية مهمة من بنيات الشعر، ابتداء من الشعر الجاهلي، ومروراً بالرومانسي حتى المعاصر، لكنها في الشعر المعاصر تبدو أكثر أهمية كونها تشكل نظاماً لغوياً جديداً، وبالتالي بنية دلالية عميقة. ويبدو أن اللجوء إلى الأسطورة في الخطاب الشعري المعاصر، أعطى للشاعر مزيداً من الحرية والتخيل والتقنية في استخدام المفردة الشعرية، فكانت الأسطورة عاملاً مساعداً على تشكيل الصورة الشعرية من جهة، ومرجعاً اتكأ عليه الشاعر لإدانة البنى السوداء في مجتمعه وتعريرها بطريقة رمزية وإيحائية من جهة أخرى، وأحياناً أدى هذا الاستخدام إلى وقوع الخطاب الشعري داخل دائرة ضيقة من إيديولوجيا انتهى إليها الشاعر، وأراد فرضها على بنية القصيدة، فكانت القصيدة أشبه بتقرير سياسي وإيديولوجي. وبعض القصائد وظفت الأسطورة توظيفاً جمالياً وفنياً، واستفادت من الإيديولوجيا في آن، لكن هذه الإيديولوجيا لم تكن طاغية وطامسة لفنيات الخطاب الشعري الأخرى.

إنّ الأسطورة تحمل "أكثر عناصر الشعر بروزاً: الغنائية والصورة والشمول الدلالي، وتقف كما يقف الشعر في منطقة إدراكية تمتزج فيها العواطف بالخيال بالوعي، لتؤلف كلاً كاملاً لا يمكن أن يحمل على غيره، إنها تحيل إلى ذاتها دائماً كما هو الشعر. ولأن هذا الكون الذي تقيمه الأسطورة يمتلك مسبقاً مقومات البناء الفني الجاهز بأفكاره وأخيلته ومغزاه الشامل، وجد الشعراء في الأسطورة متكأ يحملون عليه قصائدهم" (2). البحث:

ملاص من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
من الأعمال الشعرية الجديدة التي اتكأت على التراث التاريخي والأسطوري، وأفادت
منه، ووظفته توظيفاً جمالياً وشفيفاً أحياناً، وأحياناً رمزياً ومعقداً متداخلاً فيما بينه،
ديوان "بين يدي المحيط" للشاعر السوري محمد حمدان، وفي هذه الدراسة سأتابع الأسطورة
في ديوان الشاعر سواء كانت تاريخية أم من الميثولوجيا القديمة، باعتبار هذه الأسطورة
نسقاً بنائياً مكوناً للرؤية الشعرية، وعلاقة هذه الرؤية بالواقع العربي، وإلى مدى تدين
هذه الرؤية هذا الواقع بهزائمه وفجائعه، أي أنني من خلال الأسطورة قد أفهم الرؤية،
وبالتالي قد أفهم مكونات الخطاب الشعري عند الشاعر محمد حمدان، ومضطر هنا إلى
اللجوء لكثير من مفاهيم الإيديولوجيا وعلاقتها بالخطاب الشعري المعاصر، لأن ديوان "بين
يدي المحيط"، رؤية متشابكة تتداخل فيها الأسطورة مع التاريخ، مع الفن والإيديولوجيا
والواقع في آن.

ومع امتداد هذا الليل العربي بقتامته، فوق سهوب المدن والبحار والمحيطات، ومنذ
البداية. يفتح الشاعر قصيدته بمدخل شعري قصير. يتساءل فيه: لماذا يكتب الشقاء على
الأمة؟:

يا أمتاه

كُتِبَ الهديلُ على الحمامِ

عليكِ

هل كتَبَ البكاءُ" (3).

وسيشكل هذا المقطع الشعري مدخلا آخر يوضّحه، ويفسر بعده الرمزي، حين
يوظف الحادثة التاريخية (حادثة تمزيق القرآن الكريم)، وليحتمل هذا التوظيف بعدا
إيديولوجيا دالا، كما سنلاحظ مع نمو القصيدة، وترابط إشارات الرمزية الأسطورية
بحمولات ودلالات الرموز التاريخية.

في قصيدته من أوراق "عبد الله"، مهداة إلى أمل دنقل، وصرخته بوجه كامب ديفيد
"لا تصالح"، (*) تتنامى الرؤية الشعرية مع رؤية أمل دنقل، في رفض الاستذلال والركوع أمام
أعداء الأمة، ويظهر وجه الأم ببعده التنويري، الوجه الذي يصرخ في وجه أبنائه طالبا منهم
وقفة كبرياء، ضد السلطة المستبدة، وضد السلطة الكهنوتية رمز الثبات والسكونية:

"قالت لي أمي يوماً:

أجهز بالحق ولا تخش ظلامكُ

ارفع رأسك نحو الأعلى كالنخل البدوي
واجعل أنفك يشمخُ
في وجه الغطرسة الحبلى بالزيفُ
لا تسمع قولَ الدرويش الميت ذعراً
ويداه تعدُّ قروش الوالي" (4).

و يفيد الشاعر من دلالات البعد التاريخي لحادثة تمزيق قرآن الله من قبل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (ت 126هـ/744م) . هذه الشخصية السلطوية التاريخية المتهمكة التي حولت الأمة إلى مستزلمين، كما تذكر الكثير من المصادر التاريخية^(*):

"احذر شعراء وكتابَ ورسامي الردّة
جيشُ الردّة ما زال يقود طلائعهُ
من مزق قرآن الله وقد تعتعه السكرُ
ورافقه الشيطانُ" ص9.

1- الأسطورة بنية جمالية في النص الشعري العربي المعاصر

تمثل الأسطورة بالنسبة للأدب نموذجاً جمالياً يتكى على السحر وقوة المخيلة في استحضار النموذج الأسطوري بدلالاته الإنسانية العميقة من حيث امتداد هذه الدلالات، عبر أنساق الزمان الماضي والحاضر وبالتالي المستقبل، فالأسطورة "تتناول أعظم القضايا والمشاكل التي لا تتبدل ولا تتحول... إنها تتناول الحب والحرب، والإثم والطغيان والشجاعة والمصير، وكلها تتناول بطريقة أو بأخرى علاقة الإنسان بتلك القوى الغيبية التي يراها تارة غير منطقية وتارة قاسية، وتارة أخرى عادلة" (5).

إلا أن الشاعر العربي المعاصر أضاف لهذه القضايا والمشاكل التي لا تتبدل رؤية جوهريّة، تعتمد طاقات الفعل التثويري، وقدرته لأن يعطي الأشياء التي لا تتحول بعداً ديناميكياً وامتنامياً، وغير جامد. فالتاريخ والأسطورة، بوصفها نسقا ماضوياً، حينما يوظفها الخطاب الشعري المعاصر بفنياته الجديدة، تبقى قادرة على نقل خلفيتها المعرفية، وإحياءاتها إلى الواقع، وبالتالي تعمل على تغييره وهدمه، حتى ولو كانت بنية معرفية فرزها الماضي بأنساقه المعرفية. ويستفيد الشاعر محمد حمدان من شخصيات تاريخ الجزيرة العربية الجاهلية، ليدين واقع الردة والهزيمة، والجيوش المتراجعة المهزومة.. الواقع

ملاحم من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
المأساوي الذي تعيشه الأجيال المعاصرة، والسلطات التي تتخاذل في الدفاع عن أرضها،
وتغرق في حفلات العريضة والسكر:

" ما بال كلّ جيوشكُم
جعلت حديدَ دروعها في ظهرها
تركت بأمركُم مسالحتها
لتشهد ضحكة الفطّيون (6) يفتضّ البكاراتِ الحزينه
هي حفلة للجنس.. والعري الرخيص
على عمائمنا تقام.. على جماجمنا
ونحن الر اقصون الشاهرون سيوفنا
في وجه حرفٍ
لم يدبج خطبةً عصماء في شرف القبيلة". ص 48.

وعبر خطاب الإدانة المستنفر طاقات التاريخ وصيرورته، يدبج الخطاب الشعري
مقطوعة شعرية ساخرة، تدين سيد القبيلة ورعاع القبيلة المهزومة المستكينه:

" يا سيدي الطاووس إني خاضعٌ لمشيئتكَ
يا سيدي الطاووس إنك أنتَ مولاي الوحيدُ
يا سيدي الطاووس أنت الكُلُّ في وطن النعاجِ
يا سيدي الطاووس يا مهديّ كلّ الجائعين الخانعينُ
يا سيدي الطاووس كلُّ رقابنا جسرٌ لنعلكُ
يا سيدي الطاووس أمرك.. ثم أمرك.. ثم أمرك". ص 84.

ثم يستحضر الخطاب الشعري أبا جهل ومسيلمة الكذاب، وسجاج. وهي
الشخصيات المعروفة بمعاداتها الشديدة للنبوة، والمدّعية النبوة في شبه الجزيرة العربية.
يستحضرها ليدلّ بها إلى شخصيات عربية معاصرة أدّت الأدوار السابقة نفسها، لكن
بطريقة جديدة، إذ أسهمت في إذلال الأمة، وتبذير ثرواتها في مناطحة الويسكي وذلك في مدن
الغرب الأوروبي. بريطانيا وأوروبا.

" هذا أبو جهل.. مسيلمَةُ الجديدُ
يقود أفواج الحفاة ليدفنوا رمسيس في سيناء
والحجاج يدفع بالذنين نجوا لعرس الانتحار

وسجأحُ يملأ رقصها البيت العتيق
يقايضون النفط بالويسكي لينتشي العقال
سبحان من أسرى
وربُّ محمد أسرى به للقدس فالسموات
والإسراءُ في شرع الكبار اليومَ
نحو العربي في مدن الضباب" ص 84.85.

2- التاريخ بوصفه أحد الحقول المرجعية في ديوان بين يدي المحيط

إنّ اعتبار التاريخ حقلاً مرجعياً لرؤى الخطاب الشعري العربي المعاصر، يدفع هذا الخطاب لأن يتكى على كثير من معطيات الإيديولوجيا وبنيتها المعرفية، وبالتالي لا يستطيع الشاعر التخلص من بروز نزعتة الأيديولوجية ذاتها، داخل قسّمات هذا الخطاب. فإذا كانت الدراسات التاريخية تؤكد أنّ أنصار النبي محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) هم بسطاء الشعب وفقراؤه في مكة ويثرب، في حين أنّ التجار أصحاب الأسواق والقطاعات الزراعية من سادة مكة، هم أعداء الدعوة الجديدة، وبالتالي أعداء محمد، أعداء الطبقات الدونية في المجتمعات الإسلامية الجديدة، فإنّ الشاعر محمد حمدان يؤكد أنّ تاريخ الحياة العربية المعاصرة، يتناص مع ذلك التاريخ، فأنصار القضايا الإنسانية والوطنية النبيلة هم الكادحون والبسطاء، في حين أنّ التجار: تجار النفط والنساء والمقايضات، والباحثون عن اللذة في أوروبا هم أعداء الأمة:

"مولاي لم يدخل أبو الأوثان دينك مؤمناً
إلا بتاج الشرق والعزّي وما ملكت يمينه
مولاي: أنصارُ النبي الأوسُ والطرءاءُ
والأعرابُ أنصافُ العراة الكادحونَ

وكلُّ أفواج القداميس الكبار أبو لهب" ص 85.

وتتجلى تقنية استخدام الرمز الأسطوري عند الشاعر في قصيدته "جلجامش يتقلد سيفاً"،... إذ تتداخل الرموز بشكل كثيف، لتستحضر حالات شعرية تدين وجه الحياة العربية المعاصرة، وتبدو الأسطورة قناعاً ومرجعاً في آن، ومن كثرة استخدام شخصيات ملحمة "جلجامش"، يبدو الخطاب الشعري أحياناً ضبابياً وغائماً وعصياً على الضبط والتحليل النقدي.

ملازم من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة نصل (الطاب)
تبتدئ القصيدة بمقطوعة غنائية شفيفة، مشيرة إلى جزيرة مسحورة في بداية بحر
الظلمات تسمى الأطنطيد، ثم تبتدئ القصيدة من خلال الأسفار الصوفية، بتوظيف الرمز
الأسطوري، عبر رؤية تخيلية تفترض أنّ العرب كانوا قديماً سادة العالم، إذ فكّوا السحر،
ووصلوا إلى الأطنطيد:

"ما بين الأبيض والظلمات
على أبواب الأطنطيد
ملاعب موج فارها الطول
تقول الأسفار الصوفيّة:
إنّ الموجة ثمة نصف أنثى
نصف سمكة
جاءت أوروؤها

غبّ هبوط المشكاة على بابل قوس قزح" ص 33.

يتداخل التاريخ مع الأسطورة، مع السحر، مع مفردات النص القرآني الكريم، لتشكل
حالة شعرية ليس من السهل فك استغلاقاتها الرمزية، فالموجة نصف السمكة، ونصف
الأنثى حالة سحرية ذكرتها مغامرات الملاحين، والسير الشعبية والفولكلورية، وقد توحى إلى
جمال البحار والمحيطات التي توجد فيها هذه السمكة، وبالتالي الانتقال من فضاء مكاني
محدود إلى فضاء أعم وأشمل، هو فضاء المجد القديم والحضارات القديمة، وفضاء الوطن
والأمة، فالهبة الخلق أورو أهدعت هذه الحالة الجمالية في جزيرة الأطنطيد، وتتجسد هذه
الحالة الجمالية في حضارة بابل القديمة، التي كانت أمّ الحضارات ومنازة للعلم والمعرفة،
ويستخدم الشاعر لفظة "مشكاة" و"قوس قزح"، ليشير إلى أفق هذه الحضارات المشرقة.
"إنّ الأدب ليس سوى أساطير أعيد تجميعها، وإنّ عناصر البناء فيه تستمدّ كيانه
من الأساطير، وهنا نستطيع أن نرى في الأدب كيانه واحداً معقداً هو نفس ما نراه في
الأسطورة من كيان أكثر بساطة وسذاجة لا يعدو كونه حشداً كلياً من الإبداع اللفظي. وما
في الأدب من شيء ذي شكل وهيئة إلا وله شكل أسطوري مناظر هو الذي يأخذ بأيدينا إلى
مركز هذا الحشد من البناء أو الكيان اللفظي. ويقدر ما تنصرف الطبيعة النقدية إلى
دراسة تعانق الأدب مع الحياة، وملاءمة الكلمات للأشياء، يبعد بنا النقد الأسطوري عن
"الحياة" إلى عالم أدبي مستقل في كيانه وذاته هو هذا البناء الأدبي، بيد أن الأسطورة... تعني

أشياء كثيرة إلى جانب البناء الأدبي، وليس عالم الألفاظ والكلمات بالعالم المستقل تماماً في ذاته وكيانه" (7). وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر:

"على أبواب القلعة
أهداب البدويات المكحولة
الرمش كما الخنجر يسببك فتصبح ملحاً
يتناول صوت البوغاز
يصكُّ السمعُ
يفيقُ الميناءُ المسكون ذباباً... طاعوناً.. حتى:
"أرفضكم يا عربَ المشرق
أرفضكم يا عربَ المغربِ
أرفضكم يا عربَ الأقنعةِ
الدفِّ... الأنفارِ
الخطبِ المنقوعة بالوَحْلِ" ص 34.

3- حمولات الأسطورة إيديولوجيا وسياسيا في ديوان بين يدي المحيط

ومن فضاء الأطلنطيد وأبواب قلعتة.. فضاء السحر والأسطورة، وفضاء الحالات الجمالية التي تشكلها البدويات، اللواتي يشكلن حالة أسطورية أيضاً برموشهن الساحرة.. يأتي خطاب الإدانة لكل حالات التراجع والهزيمة العربية، والردّة الحضارية التي أزاحت العرب عن تاريخهم المشرق.. ويستخدم الشاعر عبارة: "الميناء المسكون ذباباً"، لتشير بحمولتها الدلالية والأيديولوجية، إلى حالة الانكسار العربي سالف الذكر..

يستنهض صوت البوغاز. معبر الحرية والاستشراق المستقبلي. الذاكرة العربية من انكساراتها وهزائمها، فتصبح موانئ العرب المسكونة بالذباب رفضاً وسُخْطاً، فالميناء في بنيته الدالة هو فضاء للتوق والحرية، والمراكب والسفن والقلاع، والرحلة والتجدد، لكنه داخل حقل الاستخدام الأيديولوجي والأسطوري هنا، يتحدد ليشير إلى كل الفضاءات العربية السوداء، التي تهيمن عليها شعارات التشدق والخطب الجوفاء الفارغة، وأصوات الدفوف والطارات، هذه الأصوات التي لا تحدث إلا الخواء الإنساني، وحالة من التراخي والانهمامية، في حين أنّ الفعل الجمالي البديل لحالات هذا التراخي، يضمّر في فضاءات العالم العربي الكالحة، والغارقة بالطين، ويتلاشى الأمل لولا قلة من العرب، عرب البارودة،

ملاص من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة نصل (الطاب) وبقايا أحفاد عظماء التاريخ العربي، أمثال عقبة بن نافع، الذي وصل إلى المغرب وفتحه، ومحمد بن القاسم الذي فتح المنطقة الفارسية حتى وصل إلى الصين، لولا هذه القلة لرفض صوت البوغاز. أو تحديداً صوت البديل، أو الصوت الآخر غير الانهزامي، صوت الطليعة الواعدة. لرفض كل الشرق، وكل فضاءاته وشموسه الغائبة:

"لولا عربُ البارودة في الأغوار ووادي الحمة

في كل دروب الأرض المحتلة

في كل زوارب الليل المظلم

ما بين المتبقي من راية عقبة وابن القاسم

لولا عربُ الشوق السريون

لكنتُ رفضت الشرق وشمس الشرق". ص 34.

إنّ استخدام الرمز الأسطوري والتاريخي، من أهم إنجازات القصيدة العربية المعاصرة، على مستوى الرؤية، وعلى مستوى تطويع التراث، وإحياء ما في التراث من قيم جمالية، وقد عمد الشعراء المعاصرون إلى "أن يعي شعريهم على أرفع درجة من الثقافة العريضة الغزيرة، حتى لكأنما مهمة الشاعر أن يتحدث إلى نفسه أو إلى أشباهه من المثقفين، وكان ذلك الاتجاه من الشعراء بمثابة الدفاع الجاد عن الثقافة العربية وعن تقاليد الحضارة الإنسانية كلها من ديانات وآداب ونظم اجتماعية وتأملات فلسفية وغيرها، وكيف يصنعون ذلك؟ يصنعونه بالإحالات التاريخية التي لا يكاد يخلو منها سطر واحد من القصيدة، وبديبي أن بناء قصيدة على هذا الأساس الثقافي الذي يرد له إحياء القيم الحضارية على مدى التاريخ، أقول إنه من البديبي أنّ بناء قصيدة من هذا الطراز لا يعي عفو ساعته ولا وحيّاً سهلاً هيناً يوحى به إلى الشاعر دون الحاجة منه إلى عناء، بل هو وليد دراسة الأولين والآخرين" (8).

وتمتدّ الإحالات التاريخية والأسطورية في ديوان "بين يدي المحيط"، إلى فضاءات حضارية وثقافية متعددة، إلى فضاءات النص القرآني، وفضاءات أسطورة الفينيق، وجلجامش وأرش كيغال، إلهة الموت، وحضارات بلاد الرافدين ومصر القديمة، واليمن، ويستفيد الشاعر محمد حمدان من كل هذه الفضاءات التي تبدو شديدة التداخل، يصعب فصلها، وتحديد كل إحياءاتها على حدة. يقول الشاعر:

"كان الفصلُ شتاءً
العهنُ المنفوش يطير رذاذاً
تكبرُ
تكبرُ ما بين الأمواج الفجوةُ
أمي طردتني
كنت أعيش بجوف الحوت المملوء سعالاً
لا أعرف طعم الشمسِ
غدوت مع الفينيقي
زرعت دروب الرمل بكاءً
كانت فيضانات في دجلة والنيل
ومأربُ ضاقت فيه الجدرانُ
تجمدَ سطحُ المتوسط يغريني
أبحرتُ وأرشانابي
غربتُ على وهج شعاعٍ يحمله الفينيقي
أفكرُ في ملكوت الشرق المتخيم بالظلم
وسيدوري تسكرهُ
إركالا تمسك جمتهُ

تسحبه نحو القاع السفلي ومملكة الموت الوثنية" ص 35.36.

وتتضافر الإحالات الطقوسية التي تشير إليها مفردات كالمزامير والكشف والأستار، والحالات الأسطورية التي تشير إليها شخصيتا نيسابا وأنو، الأسطورتان، اللتان ذكرتهما الأساطير، لتؤكد أن العرب المعاصرين في حالة سكون قاتلة ومميتة، وأنهم لم يفعلوا شيئاً تثويرياً من شأنه أن يفك أسرار القلعة المسحورة "الأطلنطيد"، وبالتالي يكتشفون جماليات هذه القلعة وسحرها، وما تحويه، ولم يفتحوا بابها الذي يشير رمزياً وبنويماً إلى أنه نافذة للحرية، والبحث عن بديل، فهم اتكاليون، انهزاميون ومستسلمون، فبدلاً من أن يأكلوا من عرق جبينهم، ويحرسوا أنفسهم، ويغيروا واقعهم، فإنهم يلجؤون إلى إلهة القمح (نيسابا) لتطعمهم، وإلى "أنو" الإله الأسطوري ليحميهم:

ملاحم من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري المعاصر — مجلة نصل (الطاب

"وتقول مزاميرُ الكشف الصوفيةُ:

منذ دهورٍ موعلةٍ في الغابرِ

لم تنفتح الأستارُ

ولم تسمع أمواجُ البوغاز لنسمة صيفِ

أن تخترق الأعماقَ

لذا لم تتغير في ماء البحر ملوحتهُ

نيساباً تطعم أهل القلعةِ

أنويحرسهم" ص 34.35.

إنّ انفتاح النص الشعري على أسطورة جلجامش وطاقاتها الإيحائية، أمد القصيدة بطاقة من الحلم والتّخيل، وقد أسهمت هذه الطاقة بدورها في صياغة لغة بعيدة الدلالة من جهة، وفي صياغة رؤية شعرية عمّقت إحساس الشاعر والمتلقي من جهة أخرى بمآسي أمتهم، وتراجعها الحضاري.

وكان اللجوء إلى الأسطورة نافذة للفرح، ومعادلاً موضوعياً بديلاً من خيبات الإنسان المعاصر وأزماته الروحية والحضارية، والشاعر المعاصر الذي يستخدم الأساطير يضع نفسه في مواجهة العالم، ذاتاً واعيةً لبنيات هذا العالم السوداء، وقادرة على كشفها، ووضع البديل لها، عن طريق استنفاده للشرط الإنساني الكامن في أعمال الأبطال والآلهة الأسطورية، ومن ثمّ التأكيد على هذه الأعمال الإنسانية النبيلة كونها تجسد حكمة الشعوب وخبرتها المعرفية، و"كل فكر أسطوري هو فكر أزمة، كما أنه فكر يشتمل على عالمين متميزين يكون صانع الأسطورة بينهما منقسماً على ذاته راغباً في التوحيد بينها، وقد يكون هذان العالمان هما الواقع والحلم أو الداخل والخارج أو الأنا والآخر أو الإنسان والعالم أو غير ذلك من الثنائيات، كذلك فإنّ أي شاعر أسطوري هو شاعر يقوم بإسقاط الكثير من الأفكار والأحداث والتفاصيل الخاصة بالآلهة والطبيعة والأنبياء والقديسين على ذاته، إنه يتصور نفسه إلهاً أو نبياً أو ذاتاً متعالية تنطق بالحكمة لكنها تعاني أيضاً كل ما يعانيه البشر بطريقتها الخاصة. يعاني الشاعر، خلال هذه الحالة الكليّة، حالة من التراجع بين الانقسام والتوحد، كما أنه يمرّ خلال ذلك بحالات من الآلام الشديدة والمعاناة والمكابدة، ثم العبور إلى قدس من الأقداس حيث الفهم الكلي ثم الحكمة المصفاة، وخلال ذلك يستخدم الصور وغيرها من الوسائل الشعرية لتكثيف الأزمة، كما يستخدم قراءته فيقوم

بعكسها أو قلبها بأشكال دالة كي تعبر عن ذلك الوعي الأسطوري، خلال هذه العملية تكون كل كلمة هي قناع كما يقول نيتشه. وعلينا أن نحاول أن نبحت دائماً وراء كل كلمة، عن المعاني الكامنة وراء قناعها الحرفي الظاهري الذي يواجهنا" (9).

إنّ الوعي الأسطوري هو وعي شعري في المحصلة الأخيرة، ويقوم هذا الوعي بدوره، في التأكيد على رؤية الشاعر وأيديولوجيته، انطلاقاً من الأنساق الشعرية الأسطورية ذاتها. وحين يوظف الشاعر محمد حمدان في نصوصه الشعرية عدة إحالات تاريخية أسطورية. سبق ذكرها. نلاحظ بروز الوعي الشعري، من خلال صوت البوغاز الرفض، الذي يشير إلى صوت الطليعة والنخبة.

يؤدج الشاعر قسّمات هذا الصوت من خلال المقطع الآتي في القصيدة نفسها:

"يأتيني صوتُ البوغاز المالحُ

أتركُ كوخِي والوَحْلَ ومستنقَعَ حزني:

أنتم في الحكم ملوكُ طوائفُ

في الملة والدين شيوخُ طوائفُ

أكرهكمُ

ماضيكُم يكرهكمُ

والحاضر لا يأملُ خيراً

والمستقبل يرفضكمُ حاشا عرب البارودة" ص 35.

4. الأسطورة وتداخلها مع الخرافة والحكاية

قديمًا كانت الأسطورة وسيلة أساسية من وسائل تفسير ظواهر الكون، ولذا قلما يخلو عصر من العصور من الأساطير، ومدى تأثيرها في طبيعة العلاقات البشرية اجتماعياً وفكرياً، حتى إنها لدى كثير من الشعوب تشكل بنية طقسية مقدسة يحتفى بها بإجلال واحترام عميقين. ويرى كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss) "أن الأساطير والحكايات الجارية في الحياة هي المدخل المباشر لفهم معقول للعناصر غير المفهومة في بعض أشكال الإبداع الشعبي، والرموز التشكيلية لدى بعض المجتمعات، فالأساطير والحكايات هي التي تقودنا لفهم هذه الرموز وتفسيرها. إنّ جهود الأثريين مع جهود الأثنوجرافيين سوف تساعد في إلقاء الضوء على العناصر المهمة من ثقافات الشعوب" (10).

ملاحم من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
وفي ثقافات الشعوب المعاصرة تتداخل الأسطورة مع التراث، والخرافة والحكاية،
حتى أنه ليصعب إعطاء ملاحم خاصة بها، تفرقها عن غيرها.

ولقد استوعب الشاعر العربي المعاصر درجات تداخلها وإبهامها، وغموضها، فمزجها
تارةً بالتاريخ وأخرى بمعالم مدينته وحضارته، وثالثة في علاقته مع البنيات الثقافية التي
يعايشها سياسياً واجتماعياً. إن "الوعي بالتراث والوعي بالدور التاريخي هما القدمان اللتان
يمشي بهما التراث، واللذان تقودان خطواته وتوجهاتها. ولا يمكن أن تتحقق مسيرة بقدم
واحدة. فالوعي بالتراث دون وعي بالدور التاريخي من شأنه أن ينتهي بهذا التراث إلى الجمود،
حيث تغيب كل الفعاليات اللازمة لاستمرار حيويته، والوعي بالدور التاريخي دون وعي
بالتراث يمثل قطيعة أبستمولوجية ضد تاريخية الإنسان النفسية والعقلية" (11).

وفي المقطع الآتي يستفيد الشاعر محمد حمدان من الخلفيات المرجعية التراثية
والأسطورية الآتية مؤكداً دورها التاريخي، وعلاقات هذا الدور بتطلعات الإنسان المعاصر:

1. شخصية طارق بن زياد التي ترمز إلى الشعلة والمنارة، وأفق المستقبل الثوري.
2. النخلة وهي تشير رمزياً إلى شموخ الإنسان العربي وعزته كونها تحمل استقامة السيف.
3. بعض مفردات نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب "كرم الله وجهه".
4. الواقع العربي الفاسد الأسود واقع النفط، وما يشير إليه من حالات العريدات، وهزّ
الأرداف، والخصور.
5. أسطورة عشتار وتموز، ودلالاتها البنيوية والرمزية على مستوى الخصب والنماء
والجمال.

يقول الشاعر:

"أيقظني صوتُ البوغازِ
يميد سريراً البحر على نبرته:
كلُّ ملوكِ المدنِ المفجوعةِ
أطعمت لحومهمُ أسماكِ محيطِ الظلماتِ
لم تبقَ بجوفي أسماألُ قذارتهمُ
حسي أنْ بجوفي شعلةً ذاك الطارقِ بابِ الآتي
يعطيها الزيتَ دُمَّ الآلافِ من السميرِ... انصهروا
ليعيشَ النخلُ على أبوابِ العشقِ الأندلسيِّ

يظللان بقلبي: الشعلة والنخلة
ماتت بدخان النفط مجامركم
ما بين الغمزة والسرة والردف
وبين القرّ الشتوي وحرّ الصيف
وبين النهب
يُعَمَد أطفال بيوت القصدير بخمر الحيف
دفتنم ما خلفه الأجداد لكم
مَرَقْتُم محرابَ القدس اليوم
وكلّ نزع النخل لشمسٍ دافئةٍ سمراء غداً
هل جئت لتطفيء شعلة عشتار وتموز؟
اغرب عن وجهي يا مبعوث الشر؟ " ص 37.

إنّ الخطاب الشعري العربي المعاصر، برؤيته الجمالية وفضائه، الذي ينمو متسعاً ليشير إلى بنيات المجتمع بكل حالاتها الإنسانية والثقافية والسياسية، اتكأ على الرمز الأسطوري، لما لهذا الرمز من قدرة على استحضار الجوهرية والإنساني وكشفهما، في علاقة الإنسان مع الطبيعة والمجتمع والزمان والتاريخ، وبدا الرمز الأسطوري في الخطاب الشعري قناعاً تحتمي وراءه الذات الشاعرة.. وهذا راجع إلى فسحة الحريات المهمّشة، وشبه المعدومة، والمظلمة في العالم العربي. ومنذ أن بدأت ظاهرة الرمز، تطغى على بنية هذا الخطاب بدأت الحركات النقدية ترصد إحالات هذا الرمز وتداخله مع الأحلام الغائبة، والرغبات المكبوتة، لكن هذه الحركات لم تضع حتى الآن مصطلحات علمية ونقدية دقيقة، ودراسات مقارنة حول ماهية الرمز الأسطوري، وبنيته من خلال انتقاله عبر المثاقفة الحضارية بين الأمم والشعوب، ولذا يجد الدارس صعوبة واضحة في استكناه هذا الرمز، وسيميائيته التي تبدو مغلقة في كثير من الأحيان، حتى أنّ المعاجم اللغوية التي ذكرت بعض هذه الرموز تبدو قليلة جداً، و"قاصرة قصوراً واضحاً عن خدمة الشعر. أضف إلى ذلك حاجتنا إلى معاجم أخرى كثيرة تحدثنا عن الأساطير العربية. والعلم بالأساطير يثري فهمنا للشعر... فقد نشأ الشعر العربي كغيره من الشعر في أحضان الأساطير. والأساطير جزء هام من النشاط الروحي. وإذا لم يكن بدّ من أن يقرن الشعر العربي بأشياء فلتكن الأساطير، وسائر الفنون والاعتقادات الدينية، فكل هذه العناصر تؤلف مجالاً متشعباً متفاعلاً" (12).

ملاصق من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة نصل (الكتاب
إننا إذا اتجهنا إلى البنيات الأسطورية في قصيدة (جلجامش يتقلد سيفاً)، نلاحظ أنها
ليست معزولة عن بقية البنيات الرمزية والتاريخية الأخرى في الديوان، وهي متشعبة
ومتفاعلة معها، في كل الفضاءات الشعرية، إذ يتحدد فضاء البنية الواحدة في أكثر من
قصيدة، ويتكرر كفضاء اليأس والحصاد والجوع والعري، والردّات العربية، والإذاعات
العربية الخاوية، والأبطال الأسطوريين المهزومين، وبنيات الشرّ والكذب التي تتمثل في بعض
الشخصيات التاريخية كسجاح، ومسيلمة الكذاب، وأبي جهل، وخمبابا، واركالا..
وهكذا تترابط القصائد الشعرية، فيما بينها، لتشير إلى فضاء نصي عام، هو فضاء
البحث عن قيم جمالية ونبيلة لم تتشوه بعد، ويمكننا أن نقول مع الناقد التشكيلي بيير
زيمّا (Pierre. V. Zima): "إنّ كل نص يمثل معنى في علاقته بالنصوص الأخرى (...)" فالنص
المعزول وحده لا يمكن وصفه بالمقارنة مع مصالِح اجتماعية وخطابات أيديولوجية، أو
أنظمة قيم اجتماعية أو رؤى للعالم" (13).

في المقطع الشعري الآتي، تتساند هذه البنيات لتشير إلى بعض الإيديولوجيا،
متداخلة مع رؤى للواقع العربي، ومع حالات من الحلم تارةً، وشيء من الرومانسية الثورية
تارةً أخرى:

"بقيةً جلجامش في الأرض العربيّة
هذا المنبوذُ الواقفُ قدّامك
فافتح بابَ القلعةِ
يرجو أن يتطهّر
أن يركعَ في محرابِ السيفِ
ويحفظ كلَّ طقوسِ الحبِّ
وكلَّ فنونِ الطارقِ في الحربِ
ليحرق أسطول اللذاتِ
وأسلالكِ إذاعاتِ الردةِ والقبليّةِ
دعه يتعلّم من عروّة قرآن أبي ذرّ
خمبابا ابتلع الغابة والنهر ومال النفطِ
وساوّم غربان الميناء على جثث الأعرابِ
يكاد الليل يمرُّ عليهمُ

لا يترك للريح وميض ذبالي
يتحدث عنه لمن يأتي بعد الطوفان
صديق الرحلة أنكيديو
قتلته سجاج ومسيلمة الكذاب على أبواب الغاية
جلجامش أضحى معزولاً ومحاصرٌ" ص 38.

قد يتساءل القارئ الكريم: ما العلاقات الإشارية القائمة بين جلجامش وطارق بن زياد، وعروة بن الورد، والقرآن الكريم، وأبي ذر، وخمبابا، ومال النفط، وأنكيديو وسجاج ومسيلمة الكذاب، حتى تغطي بهذه الكثافة فضاء النص الشعري..؟! .. وهل الشعر فضاء لأسماء الشخصيات الأسطورية والتاريخية، أم هو فضاء للتخييل والإبداع، والكشف؟.

إنّ محاولة تأويل الرمز الشعري تأويلاً دقيقاً، وفهمه كبنية نصية، هي أشبه بحل معادلات الرياضيات، أو فكّ استغلاقات المتواليات الهندسية، والرموز اللوغاريتمية.. ولذا فالرمز الشعري عصي على الضبط، وهو بنية سيميائية معقدة، لها حقولها المرجعية الممتدة في التراث والأسطورة والأحلام، واللاشعور الجمعي (. (collective unconscious)، حسب مصطلح كارل غوستاف يونغ، (Carl Jung) هذا اللاشعور الذي يظهر عند الإنسان المبدع في "رؤى الفنان ووحى المفكر وتجربة المتصوّف" (14).

وبلا شك قد يحتاج الرمز إلى تأويل، بوصف هذا التأويل أداة مهمة لفك استغلاقاته، ومن ثمّ إيجاد فضاء جمالي بين حالة الرمز، وبين حالة المرموز إليه، ورغم المحاولات المتباينة من قبل الدارسين والنقاد لتأويله، ومع ذلك يمكن القول إنه "ليس هناك حدود لتأويله" (15).

كل محاولة لفهم الشعر فهماً نصياً ضيقاً، هي محاولة محكومة، بأفقها الضيق، لأنها لا تتعدى حدود التشبيه والاستعارة، والعلاقات البلاغية التي تعارف عليها النقد القديم، إذ ينصب اهتمام الناقد والمحلل الأدبي على مجموعة مقولات جاهزة: يريد الشاعر أن يقول، ويقصد الشاعر بقوله كذا وكذا، ويشبه الشاعر هذا بذلك، وهذا عائد إلى بيئته وظروفه الجغرافية، وظروف مرضه التي عاش فيها.

إنّ مثل هذه الكليشيات الجاهزة، والتي لا تزال تتحكم في كثير من نصوصنا النقدية المعاصرة، والصفحات الأدبية لصحافتنا اليومية، لم تسهم إلاّ في قتل طاقات النص الإيحائية، وقدرته على أن يكون نصاً منفتحاً ومتنامياً مع نصوص وثقافات معاصرة أخرى،

ملاص من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
وطبيعي أمام التباينات الفكرية والثقافية السائدة في الأوساط النقدية، أن يتفكك المنهج
النقدي نفسه، وأن يكشف عن إمكانات جديدة تنتمي إلى الحقول المعرفية كافة، من
فلسفة وفن وتاريخ وميثولوجيا وأساطير، لما للأساطير من أهمية بالغة في "الكشف عن
النماذج المثالية لكل الطقوس وكل النشاطات البشرية الدالة" (16). والشعر من أهم هذه
النشاطات عمقاً وبعداً ودلاله.

نعود إلى المقطع السابق، لنرى أن الشخصيات الأسطورية والتاريخية محكومة برؤية
أيديولوجية برزت من خلال الفضاء الشعري على شكل ثنائيات ضدية: ثنائية تجسد قيماً
جمالية وخيرة: جلجامش، طارق بن زياد، عروة، القران، أبو ذر، أنكيدو، وثنائية ضدية
تجسد عكس القيم السابقة: خمبابا، الردة، القبليّة، الظلام والفوضى العربية التي تشير
إليها لفظة "الغابة"، سجاح، مسيلمة الكذاب، الإذاعات العربية الطامسة للحقائق، مال
النفط المنهوب من قوت الأمة وعرقها، والمبذر على اللذات الرخيصة.

إن العلاقات الإشاريّة القائمة بين هذه الشخصيات هي علاقات رؤية وتاريخ وفن،
فأبو ذر وعروة، يربطهما مفاهيم النص القرآني الجمالية والخيرة، ويربطهما توق البحث عن
أفق مشرق، يحقق للبشرية، سلاماً وطمأنينة وعدلاً، بحيث لا ينفى أبو ذر وحيداً شريداً إلى
صحراء الربذة، التي تقع في شرق المدينة المنورة وتبعد عنها قرابة 170 كم، محروماً من حقّه
في بيت مال المسلمين، ولا يفني عروة بن الورد زمانه ضائعاً وجائعاً ومتصعلكاً في بوابات
الصحراء ومفاوزها باحثاً عمّا يسدّ رمقه هو وأصحابه الصعاليك، ولا يموت عطشاً، في حين
أن أفراد القبيلة وشيوخها وزعماءها يموتون تخمةً وسكرًا، ومالاً وحريراً وجواري.
وجلجامش وأنكيدو يربطهما التوق إلى اكتشاف المجهول، والقضاء على عنصر الشر الكامن
في رمزية (خمبابا)، واكتشاف النبتة المقدسة، التي تعطي لأبناء البشر زماناً نظيفاً، وخلوداً
يجعلهم في مصاف الآلهة.

والثنائيات الضدية في القصيدة المعاصرة هي حمولات أيديولوجية، تشير إلى
الظواهر الثقافية والإنسانية والاجتماعية في المجتمع ببعديها السلبي والإيجابي، وتشكيلها في
القصيدة المعاصرة ليست تجربة مقصودة لذاتها، بل في قدرتها على الإيحاء بعمق الفكرة،
وبعدها الإشاري. وعندما يقتصر استخدامها على القصيدة، تتحول إلى بنية نصية... يغلب
عليها الافتعال والصنعة، وتفقد في الحين إلى الإبداع والتّخيل. وتوظيف الأسطورة في الشعر
المعاصر، ينبغي أن لا يكون ظاهرة قصديّة، بل هو استحضار لبنية جمالية، يتماهى فيها

الإنسان مع قيم فوق عادية، لا يستطيع تحقيقها إلا الأبطال الأسطوريون، وهو رفض للزمان الحاضر. زمان الفاجع والقتامة. تماهياً مع زمان أكثر شفافية وخيراً وعدلاً، ويمكن القول مع ميرسيا إلياد (Mircea Eliade) :

"إن الإنسان وهو يعيش الأساطير، يخرج من الزمان الدنيوي الكرونولوجي حيث يلج زماناً مختلفاً كيفاً، زماناً "مقدساً" أولياً، وهو في الوقت نفسه زمان يمكن استعادته على الدوام" (17).

والشعر في خطاباته، وبنياته النصية الأسطورية هو محاولة دائبة البحث للخروج من أزمنة السواد الدنيوية، وتأسيس أزمنة بيضاء لا طغاة فيها. والعلاقات الإشارية والبنوية التي تجمع سجاح ومسيلمة الكذاب، وإذاعات الردّة العربية ومال النفط، في قصيدة جلجامش يتقلد السيف. واضحة جداً في تاريخنا المعاصر، وليست بحاجة إلى أي تأويل أو تفسير. إن "استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجراً للمواقف الثورية فيه، وأبعدها أثراً حتى اليوم" (18).

5- التداخل بين الرموز التاريخية والأسطورية في ديوان بين يد المحيط

تتجلى جراءة الرؤية في ديوان "بين يدي المحيط". في كثير من المواقف، منها المزج بين دلالات الأسطورة البابلية "جلجامش"، وبين التاريخ، إذ يتداخل التاريخ مع الأسطورة، وتصبح الأسطورة قناعاً للتاريخ، والتاريخ قناعاً تختبئ وراءه الذات الشاعرة. في المقطع السابق الذي ذكرناه:

"صديق الرحلة أنكيدو.

قتلته سجاج ومسيلمة الكذاب على أبواب الغابة" ص 38.

وبمحاولة تأويل المقطع نلاحظ أن "أنكيدو" يعني البطل الثوري والمفدي والمخلص، وهو هنا إما أن يكون جمال عبد الناصر في مرحلة مدّة القومي والوحدوي، وإما أن يكون إشارة إلى العمل الفدائي في تفجير عطنائه الثوري، وقد يكون الحلم العربي المشرق، في الحرية والكرامة، أو فكرة الثورة والحق والعدالة، أو بطل ثوري آخر كان له دوره الإنساني والنبيل في تطوير مجتمعه، وتشديد بذور الخير والحق والعدل فيه.

قد يكون أنكيدو جزءاً من هذه الرؤى، أو كلها في آن... لكنه يبقى نافذة الفرح، أو النور الهادي، الذي يهتدي به البطل الأسطوري جلجامش... وبالتالي بقية جلجامش وأحفاد طارق الموجودة على الأرض العربية. وتختبئ الذات الشاعرة أيضاً وراء قناع "الفينيق"،

ملا مع من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة فصل الخطاب
الطائر الأسطوري المتجدد، الذي يحرق نفسه كلما هرم، ثم يعود متجدداً، فالفيثيق هو
صوت البوغاز، وصوت التغيير، وصوت البحث عن بديل".

"قال الفيثيقُ:

بقيةُ جلامشٍ في الأرض العربيةِ

هذا المنبوذُ الواقفُ قدّامكُ

فافتح بابَ القلعةِ

يرجو أن يتطهر" ص 38.

إن انفتاح باب القلعة رمزياً، يشير إلى تدفق الآفاق، والعطاءات البديلة، هذه الآفاق
المشرقة، تحديداً، ستقف في وجه سجاج ومسيلمة الكذاب، وغريان الموائى والغابات
العربية. والصوت الأسطوري رمزياً وتاريخياً - عبر فضاء النص الشعري - يفتح على
فضاءات الحياة العربية السوداء، بعد أن ضاع الجهاد منها، وبعد أن قتلها القبليّة
والصراعات الطائفية والمذهبية في الأزهر والنجف، وبعد أن تحوّل النفط في الصحراء إلى
سيد مطاع، وبعد أن وُدت الأحلام الثورية وطاردها في البتراء، وبيروت وحيفا، وبُددت
طاقات المغرب العربي الاقتصادية والعسكرية من ليبيا إلى المغرب "صنهاجة"، في رمال
الصحراء، أي تحديداً في حرب البوليزاريو مع المغرب:

تقول القصيدة:

"افتح بابَ الحصن لهُ.

نجدُ غرقتُ فيها حباتُ السبحةِ بالنفطِ

وصنهاجةُ تلعب بالرملِ

.....

ومئذنةُ البتراء تطاردُ حلماً

فرّ إليها من أنطاكية المأسورةِ

والحلّج تشقّق مصحفه مذ ضاع الركنُ الخامس منهُ

وصحن الأزهر في معركة لاهبةِ

مع بهو النجف الغارق بالحزن

ومأسٍ أدهى تقرع أبوابَ البيت

فلاقبُ القرويين ولا المنبرُ في الزيتونةِ

يسمغ صوت الصخرة والإسراء:

لقد ماتت بيروتٌ وحيفا". ص 39. 40.

وتنتهي القصيدة ببارقة أمل خضراء، حين تضع الرؤية الشعرية مشروعها الفكري والحضاري، في استشراف آفاق المستقبل، فالمستقبل لا بدّ آتٍ ومشرق، طالما أنّ في الأرض العربية خصباً وأحفاداً لجلجامش تواقين للرحلة والثورة:

"لا تخش الآتي يا فينيقُ

فجلجامشٌ ليس عقيماً

شعب يحرق ذيل الطاووسٍ ويحملُ سيفاً

لن يقتله خمبابا

جلجامشٌ سوف يحطم خمبابا يوماً". ص 41.

الخاتمة

هذه بعض المؤثرات التاريخية والأسطورية في ديوان (بين يدي المحيط) التي نكتفي بها، حتى لا تتكرر الإشارة إلى بنية المؤثرات الأخرى ودلالاتها، مع ملاحظة أنّ بقية المؤثرات الأخرى لا تختلف كثيراً عن بنية المؤثرات التي تناولها هذا البحث بالدراسة، بل تتناصّ معها. إنّ توظيفها مجتمعة يدخل ضمن رؤية شعرية ترتبط، بشكل واضح، بعدة أنساق إيديولوجية، وخلفيات معرفية وسمت الخطاب الشعري، وحددت توجهاته من بداية الديوان حتى نهايته.

وليست نصوص ديوان (بين يدي المحيط) الشعرية نصوصاً إبداعية بلا هدف وظيفي، أو منجزة يُقصد بها تشكيل الإبداع لأجل الإبداع، أو تشكيل الفن لأجل الفن (Art for art's)، بل هي نصوص توغل بعيداً في أعماق الأسطورة القديمة لتشكّل منها حقلاً مرجعياً، يمكن من خلاله إدانة الواقع المعاصر بهزائمه وفواجعه ومواجهه، أي أن توظيف الأسطورة، بالإضافة إلى توظيفها توظيفاً فنياً وجمالياً، له هدف وظيفي آخر، وهذا الهدف يتجلى في كونه حاملاً لأطروحات معرفية أخرى، سياسية واجتماعية وإيديولوجية في الآن نفسه. وهذه الأطروحات المعرفية ترفض أن تتصالح مع الواقع، وأن تقبله كما هو بخطاباته، بل هي تدينه، وتعري قشرته الداخليّة، وتكشف القناع الأشرف الفاسد الذي يتقنّع به سكان هذا الواقع، في مجمل سلوكهم وآرائهم وقيمهم المتدنية التي كرسها طغاة

ملاحم من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري المعاصر — مجلة نصل الخطاب
هذا الواقع المستبدون، المستأثرون بكل ما تنتجه بلدانهم، من اقتصاد وخيرات وثروات
طائلة.

إن الخطاب الشعري الذي كرّسه هذا الديوان، الذي درسنا أهم نصوصه
وحللناها، هو خطاب متناسق متعدد، ومتشعب في ثقافته وفي خلفياته المعرفية التي استمدت
منها رؤاه الشعرية، وهو ينهل من التراث التاريخي، والتراث الأسطوري، ومن الملاحم البابلية
القديمة، ويمزج بينها، مشكلاً منها رؤى جديدة، ونصوصاً جديدة، تتداخل فيها الأساطير
بالتاريخ بالملاحم بالحكايات العربية القديمة تداخلاً مرگباً. ويبدو، من الصعوبة بمكان، أن
يستطيع متلقي هذه النصوص فصل دلالات الرموز الأسطورية عن دلالات رموز
الشخصيات التاريخية، فتتحول الأسطورة إلى تاريخ في نص ما، ويصبح التاريخ أسطورة في
نص آخر.

وهذا التشكيل القائم على التمازج هو الأساس الذي انبنى عليه هذا الديوان، لغة
ورؤية ورمزا وإبداعا، وإدانة ورفضاً، وبعدا إيديولوجيا دالا يحمل مزيداً من الأطروحات
الفكرية، والمواقف السياسية التي يؤمن بها منتج هذا الديوان، أو يتبناها.

مراجع البحث وإحالاته:

- (1)- خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى،
1973 م، ص 6.
- (2). محمد الأسعد، مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والشعر، بيروت، الطبعة الأولى،
1980م، ص 128.
- (3). محمد حمدان بين يدي المحيط، دار الحقائق، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص 5. وقد صدر للشاعر
الأعمال الشعرية الآتية: (1). الفارس والعملة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة
الأولى، 1979م. (2). الميناء الموبوء، دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.
- (4). بين يدي المحيط، ص 7. وجميع الإشارات إلى أرقام صفحات المقطوعات الشعرية ستوضع بعد الآن
في متن الدراسة بجوار هذه المقطوعات.
- (5). هيرمان نورثروب فراي، في النقد والأدب، ترجمة دكتور عبد الحميد شيحة، مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، الطبعة الأولى 1989م، ص 7.
- (6). الفطيون: صيرفي يهودي فرض سطوته في الجاهلية على منطقة يثرب وطريق التجارة.
- (7). نورثروب فراي، في النقد والأدب، مرجع مذكور، ص 87.
- (8). د. زكي نجيب محمود، مع الشعراء، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م، ص 141.

- (9). د. شاكر عبد الحميد، لغة الحلم والأسطورة في شعر السبعينات في مصر، ألف مجلة البلاغة المقارنة، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة، العدد الحادي عشر، 1991م، ص 55.
- (10) - LEVI- STRUS CLAUDE, STRUCTURAL ANTHROPOLOGY, BASIC BOOKS, INC, NEW YORK, 1963. مستشهد به عند: صفوت كمال، الرمز والأسطورة في المجتمعات البدائية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد التاسع، العدد الرابع، يناير، فبراير، مارس، 1979، ص 185.
- (11). د. عز الدين إسماعيل، توظيف التراث في المسرح، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الأول، العدد الأول، أكتوبر، 1980م، ص 166.
- (12). عن /د. أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992م، ص 152. مأخوذ عن د. مصطفى ناصيف، دراسة الأدب العربي، ص 207.
- (13). بيير زيمبا، النقد الاجتماعي، ترجمة عايذة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1991م، ص 100.
- (14) - C. G. JUNG, THE ROLE OF THE UNCONSCIOUS, ROUTLEDGE AND KEGAN POOL, TRANSLATED BY R. F. HULL, LONDON 1964, P.10.
- ترجمة: محمد أحمد في كتابه: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص 14.
- (15). د.نبيلة إبراهيم، الرمز والأمثولة في التعبير الشعبي، ألف، مجلة البلاغة المقارنة، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة العدد الثاني عشر، 1992م، ص 138.
- (16). ميرسيا إلياد، بنية الأساطير، ترجمة د. محمد يشوتي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، العددان 13/14، ربيع 1991م، ص 81.
- (17). ميرسيا إلياد، المرجع السابق، ص 85.
- (18). د. إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان، الطبعة الثانية، 1992م، ص 128.

قائمة مصادر البحث ومراجعته:

1. الأسعد، محمد: مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والشعر، بيروت، ط. 1، 1980م.
2. إبراهيم، د.نبيلة: الرمز والأمثولة في التعبير الشعبي، ألف، مجلة البلاغة المقارنة، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة العدد الثاني عشر، 1992م.
3. أحمد، محمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1987م.
4. إسماعيل، د. عز الدين: توظيف التراث في المسرح، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الأول، العدد الأول، أكتوبر، 1980م.

ملاعق من التراث التاريخي والأسطوري في الخطاب الشعري السوري المعاصر — مجلة فصل الخطاب

5. إلباد، ميرسيا: بنية الأساطير، ترجمة د. محمد يشوتي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، العددان 13/14، ربيع 1991م.
 6. حمدان، محمد: - بين يدي المحيط، دار الحقائق، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
- الفارس والعتمة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1979م.
- الميناء الموبوء، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.
 7. خليل، د. خليل أحمد: مضمون الأسطورة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1973م.
 8. داود، د. أنس: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992م.
 9. دنقل، أمل: الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان أقوال جديدة في حرب البسوس، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1407هـ/1987م.
 10. زيماء، بيير: النقد الاجتماعي، ترجمة عايذة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1991م.
 11. عباس، د. إحسان: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان، الطبعة الثانية، 1992م.
 12. - عبد الحميد، د. شاكرا: لغة الحلم والأسطورة في شعر السبعينات في مصر، ألف مجلة البلاغة المقارنة، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة، العدد الحادي عشر، 1991م.
 13. - كمال، صفوت: الرمز والأسطورة في المجتمعات البدائية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد التاسع، العدد الرابع، يناير، فبراير، مارس، 1979.
 14. - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1. المحققة، 1411 هـ/ 1991 م، ج/3.
 15. نجيب محمود، د. زكي: مع الشعراء، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م.
 16. نورثروب فراي، هيرمان: في النقد والأدب، ترجمة دكتور عبد الحميد شيحة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1989م.
- 17 CLAUDE ,LEVI- STRUS: STRUCTURAL ANTHROPOL- OGY, BASIC BOOKS, INC, NEW YORK, 1963.
- 18 JUNG, C. G: THEROL OF THE UNCONSCIOUS, ROUT- LEDGE AND KEGAN POOL, TRANLATED BY R. F HULL,LONDON 1964.